المرفض

قصة بقلم محمود الريماوي

لم اكن اتوقع يوما ان اكتب في هذا الوضع . في مغارة (في المغارة منعطفات وزوايا صغيرة . شمعة واحدة تكفي . قلم حبر جاف يؤدي المهمة . ثم خفقان الاصابع ، والتعبيرات التي لا تتأخر في المجيء) . سلاحي في حضني وحول خاصرتي . الرفاق يأخذون ساعات الراحة في النوم . في الخارج كل شيء يوحي بالخطر والمفاجآت . حتى صوت الهواء وحفيف الاوراق ، او وقع اقدام الحيوانات الضالة.

كنت أيام الدراسة ، اتوقع ان اصبح موظفا مرموقا ، اجلس خلف مكتب عريض واكتب ، وعندما يخونني المزاج يسعفني فنجان قهوة يتبنى احضاره تلفون بجانبي . لكني اشعر باحترام نحو شخصي، في كوني اتخذ موقعي الطبيعي . في الساعات الاولى من الصباح سننفذ العملية . هجوم واقتحام لمعسكر . سأقوم بدور الحماية وتأمين الحراسة ، وبث الالغام لقطع الطريق على النجدات . ليست العملية صعبة . لمن يقوم بها للمرة غير الاولى .

اليوم الخامس من ذلك الشهر ، من ذلك العام ، لم يترك لوعيي وعيا . تعلمنا انها لا تمكث اكثر من ٢٤ ساعة . ثم نذهب الى البحر والمروج والبرتقال . كل الشعوب تضع في حسابها الهزيمة ، الا نحن لم نكن . كأن (خير أمة ..) تكفي . قرأنا دروس الجغرافيا والتاريخ، وانشدنا قصائد وسردنا حكايا برسم الوطن المفقود . (عبد المعطي يشخر بصوت متقطع . هذه عادته . هذه مصيبته . صوته العالي يجعلني اتصور ان ثمة خطرا يطبخ في الخارج لكن صوت الشخير يغطيه . خطر له صوت خبيث وملتف بالغموض ، لكن شخير عبد المعطي الذي لا يكف .. ماذا اقول ؟!) . كأن الوطن جغرافية وتاريخ وقصائد وقصص . اما التراب (هذا التراب الذي اقرفص فوقه الان، واستشعر نبض الحياة والعلاقة فيه ..) علمونا انه عدة انواع ، اذكر منها الصلصالي والرملي والاسود ولا ادري ماذا ايضا . والشجر (قبل شهر تقريبا ، كنا نكاد نتساقط من الجوع . صادفنا شجرة تين عجوزا ، وجردناها من ثمارها . كنت اشعر شخصيا انها امي ، ولي الحق في ان استمد اسباب البقاء منها . الشجر . وفي اليوم التالي اصدرنا بيانا في اليوم التالي) .. درسونا انه شروش وجذوع واغصان ، واشعة شمس فوق بنفسجية ، وتركيب وعقل وسماد ، وما شابه . اتسمع وقع اقدام بشرية . هذا يعني الخطر . خطر التوقف عن المجابهة . تقولون اني اخاف الموت ؟ اجل اخافه . والا لماذا هربت من تلك العاصمة المزخرفة . كنت هناك اموت كل يوم تحت نعال الشفقة والسوحان . جئت الى هنا شغفا بالحياة (خطيبة فواز ، رفيقنا ، اسمها حياة . دائما اسمها على لسانه .. لكن انا متى سأخطب ؟ ! . كنت اموت بالمجان . كنت جبانا لاني انتحر . بقيت ساعة ونصفا . الكتابة ممتعة مع الشاي والسجائر الحادة ، مثل اطلاق رصاص في ساعة شجاعة . عندما تزوج شقيقي فهد ، اطلقنا رصاصا بما يكفي لابادة كتيبة . اكثر من كان يلزمهم ذلك اعمامي ، وهم كبار في السن ولاولادهم اولاد . كنت ارتعد من الصوت ، لكني كنت اجمع (الفشك) الفارغ وابيعه ، واشتري بثمنه راحة حلقوم ... ماذا يقول عدنان ؟ انه يهذي : ارجعوا لورا . نومة بلا قومة . لا . بس . عدنان دائما يحلم بصوت عال . عواطفه لا تستقر ابدا ، وهي في حالة حركة وتجدد دائمة . ماذا احكي عنه ؟ حكايته حكاية . هو اكبرنا سنا . وراءه امرأة ، وثلاثة اطفال . كان فقيرا لدرجة العدم . اشتغل في الحدادة منذ صغره (اية مأساة ان يتعامل الطفل مع الحديد !) . على كل حال نحن كلنا فقراء . مات ابوه عندما سقط عن بناية عالية كان يشتغل فيها ، فاصبح في رقبته مصير العائلة . حتى اصبح (معلما) وفتح محلا . تزوج وسافر الى الكويت . وكانت الايام السنة. الوطن ومسألة العيش يؤرقانه معا .

الان لم اعد اسمع وقع الاقدام البشرية ، لكني اسمع نبض اعصابي ، مثل مقطوعة موسيقية صاخبة الايقاع الداخلي . اشم رائحة غريبة . المغاور تمتاز برائحة فريدة ، مثقلة بالرطوبة والتوجس، غير انها رائحة الامان بالنسبة لنا . كم انفقت من ايام في مثل هذه الامكنة ، قبل ان اواجه رشاشاتهم وطائراتهم ومصابيحهم المضيئة . لا زالت وقائع العملية الاخيرة تتقافز في ذاكرتي . كمين يفاجئنا بالرصاص ، لكن احدا منا لم يصب ، بينما ابدناهم جميعا . ابادة خمسة انفار ، امر ليس سهلا. كنا نرفع رؤوسنا فنلحظ فوهات الرشاشات . يحاربوننا بالنار فقط . كادت زخة ان تجهز علي ، لكن تمترسي انقذني . الصوت والصدى ، والزمن الذي يفعل فعله. الزمن عند ذاك لا يكون ضائعا قط . اتذكر الان حكايات الشباب الصغار الذين ((يضيعون)) . في الطريق التي يعرفونها يضيعون .. اي منطق؟ والاهل الذين يسألون . منير ، رفيقنا ، واحد منهم ((ضاع)) قبل نصف سنة (شاب حنطي طويل القامة ، تميزه شامة في منحدر عنقه . يرتدي بنطلونا بنيا وقميصا اسود ، لون العيون كذا ولون الحذاء ..) . نائم وممعن في الاغفاء ، ومسحة البراءة تشعشع في وجهه .

ـ ماذا تفعل ؟

احمد تجيئه هواجس ، وتتراكم احيانا حتى تتحول الى كابوس. غرابة تطل من عينيه المحمرتين ، ويعتمد في جلسته النصفية على ساعديه ..

ـ اكتب ..

ـ وقت كتابة صحيح .. طيب كم بقي من الوقت ؟

ـ اكثر من ساعة .

ـ لو تسقيني ..

ـ الابريق وراء رأسك .

شرب بنهم الرضيع ، ومسح بطرف كمه ، الماء عن فمه ، ونظر الي لبرهة .

ـ اكتب . اكتب . الله يكتب لنا النصر .

اراهن انه بعد نصف دقيقة قد غاب . سلطان النعاس يخفف وطأة الخطر . عادة اتأخر قبل ان اغفو ولو في مثل هذا الموقف . لا اترك نهاري قبل ان احاسب نفسي واحاكمها . لا يعنيني كثيرا كلام الجرائد . الجرائد لا تفهمنا . نحن بشر ولم ننزل من السماء . السماء في منتهى العتمة . والدنيا عباءة سوداء مثل عباءة امي . لكن امي لا تخاف الحرب ، ولا تخاف على ابنها الوحيد . ماذا تراها تفعل الان ؟ كثيرا ما انساها وانا هنا ، غير اني احيانا اذكرها دون ارادة. اتذكر باستمرار سلاحي وطعامي وسجائري. وعندما يتاح لي النوم ادرك صلتي بالخارج . العالم يختصر نفسه بالمواجهة والتحدي بالنسبة لي ... ما

هذه الخبطة ؟ . اشعر بارتباك في اعصابي . اشعر بدبيب الخطر (اللحظات تمر بطيئة ومتثاقلة ، وحافلة بالتوقعات ، ويعود الصمت يفترش المكان) . ادمنت هنا على الخطر ، لكنه لم يفقد حدته بعد . تعودنا على السعي الى العيش . الخطر يؤدي الى العري . اصيب رفيق لنا مرة بهستيريا الخوف وهرب . حملناه الى اقرب ملجأ ، وفي الصباح انكر انه فعل . ليس يقدر رجل على مثل ذلك الاعتراف فكيف اذا كان واحدا منا ، وهو اليوم اكثرنا مبادرة . هذه المرة لن يرتجز الرشاش تحت ابطي ولن تخونني أصابعي . سأبث الالغام في اقصر وقت ممكن . لا احد يعرف ماذا نفعل وكيف يمضي الوقت بنا. نخرج من الموت كل يوم . البيان الواحد يكلفنا اعصابا كثيرة ، ولم تزل اعصابنا لدينا (كانوا يقولون لي ابو عصب ، الاطفال ، من فرط هزالي . ينادونني الان ابو حديد .. أي مسافة قطعتها بين اللقبين؟). الهدف يبعد عن هذا المكان ، ساعتين مشيا . لكن كيف نمشي . لن افصح . اي انه بقيت ثلاث ساعات ويكون الالتحام . اتطلع الى جسدي . صلب حقا ، ومع ذلك رصاصة واحدة كافية لسحب الحياة منه . اية مأساة ان املك بدني مرة واحدة في العمر ؟ . بين لحظة واخرى التفت الى الساعة الملتصقة بمعصمي . اسمع دقاتها بكل الوضوح . انها تقودني . عقربان وارقام وتكتكات . وعندما يدور العقرب الصغير ثلاث دورات اخرى ، اكون في منتصفها .. المعركة . يا اهلا بالمعارك . (احرصوا على الانضباط والسرعة . لا تنسوا شيئا . ليكن عقلكم دائما في رؤوسكم . حاولوا ان تحملوا الجريح واذا كان في ذلك خطر عليكم اتركوه . لكن لا تفرطوا به بسهولة . هيئوا السلاح وتفحصوه قبل البدء . انتم تستعيضون عن صمم العالم كله بسلاحكم . فلا تدعوه يخونكم بالاهمال او الخطأ) . نبرته واثقة ومفعمة بالرجولة ، قائدنا . اتذكره بشاربه الكث وعيونه الدقيقة ، وجبهته العريضة . لا يغفر لاحدنا اي تقصير ، وعندما يبدر منه ما يمكن ان يكون كذلك ، فانه لا ينسى ان يحاسب نفسه. مرة نسي طبقه دون ان ينظفه ، فنسيه الطعام على مدى يوم كامل .

بقيت ثلاثة ارباع الساعة . مع اقتراب الوقت يبدأ التهيؤ يشمل كياننا . تركيز الذهن ضروري جدا ، ولحظات المرح لا بد منها ،وشخير عبد المعطي يبدو كأن لا بد منه . هذه ظاهرة ينبغي ان يتخلص منها ولو تخلص من انفه !.. ماذا اسمع . انه ازيز صرصار الزيتون . لحنه مميز وواضح ، لكنه رتيب ومضجر . يذكرني بايام قطف الزيتون، وكيف كنت انقل الاكياس الثقيلة على البغل طيلة النهار ، وفي الليل احيانا الى المعصرة . نحن نسميها (بد) . واللصوص وزيت الخراج وحليمة .. آه منك حليمة ! . اتذكرها . تزوجت الان . نحن نذكر من نحب في اوقات الراحة، وفي اوقات المصير . بعد دقائق ساوقظهم . لا احد يتأخر في النهوض ، كما لو ان صوتي يقتل مفتاح منبه في داخلهم . كم تتضاءل المسافات ما بيننا . المصير الواحد يفتح حقائب اسرارنا وخصوصياتنا . هذه المذكرة ، ساضعها في جيب القميص التحتاني . اعشق كتابة يومياتي وخواطري . قبل ان التحق بهم كنت اكتب عن حمى الجنس ومآزق البحث عن اليقين .. لم يكن من مأزق ، ما اضيق افقي ايامها . لم اعد اكتب اليوم شيئا سوى المذكرات واحيانا رسائل . غير ان الكتابة التي تخصني اكثر من سواها، هي الكتابة بغير القلم ، وعلى غير الورق . اسمع انفاسهم ، وبعد لحظات اسمع اصواتهم المحببة ، ومن بعد دوي الرصاص وشهقات النيران المرتفعة .

سأوقظهم الان ، كي نرفض معا هذا المسمى بالعالم .

***

بعد ساعتين وبضع ساعة ، وفي مكان ما من ارض الفلسطينيين، زغردت اصوات ثاقبة ، انطلقت من فم النيران ، فوهات البنادق . انزلق الرشاش من تحت الابط ، او ، بيد أن كلمات مشلوحة بحبر جاف ، اختلطت بالاحمر . كان الرجل يكتب مذكراته بغير القلم ، وعلى غير الورق ، تلك المرة . كان جسد الارض يخفق من السخونة ، وشقائق النعمان تنوي ان تنبثق بين يدي الفجر .

مضى عبد المعطي واحمد وعدنان ومنير والرفاق الاخرون عائدين الى القاعدة .

وازدانت الجرائد ببيان جديد في اليوم التالي . لكن الرجل كتب قبل آن يغادر جسده (الجرائد لا تفهمنا) .. هل تلاحظون ؟ .

بيروت

محمود الريماوي

الوحدة العربية آتية !

للمؤرخ البريطاني الشهير
ارنولد توينبي

عرف المؤرخ البريطاني الشهير ارنولد توينبي بتعاطفه مع العرب وتأييده لقضاياهم . وان مواقفه من اسرائيل وعدوانيتها وعنصريتها لا تزال في الاذهان .

وفي هذا الكتاب يتنبأ توينبي بان الوحدة العربية لن تستغرق من الزمن حتى تتحقق ما استغرقته الوحدة الالمانية والوحدة الايطالية ، ولن تنحرف مثلهما ، بل ان سنة ١٩٧٤ هي الحد الاقصى (كما يقول توينبي) لاشراق نور هذه الوحدة العربية .

ويتحدث المؤرخ البريطاني عن العقبات التي تعترض الوحدة العربية والوحدة الافريقية ، ولكنه يؤكد ان هذه العقبات ، ومنها مصالح بعض الافراد والاسر المستفيدة من التجزئة ، ستزول تدريجيا ، وان الوحدة العربية قادمة قريبا وويل لمن تعميه مصلحته الموقتة من أبنائها عن الحق ، وويل اكثر لمن يقف في طريقها ، معاداة للخير ، من غير أبنائها . . .

وفي هذا الكتاب الممتع تأملات تاريخية طافت بذهن توينبي اثناء رحلاته الثلاث الى بلدان افريقية ، شمالي وجنوبي الصحراء الكبرى ، وعرض دقيق لمشكلة السودان ونيجيريا ، وائتلاف الاسلام والمسيحية في الحبشة وتاريخ نهر النيل ، ووصف شيق لمنطقة « سد الجبل » في أعالي النيل وورشة « اسوان » و « الجزيرة » في السودان ، مع زيارة الى غزة ومخيمات اللاجئين الفلسطينيين واشادة بالخدمات التي قدمتها مصر لتلك المنطقة . كل ذلك في اسلوب شيق ونفس انساني رفيع وروح دعم وتأييد للنضال العربي